حسن كمال

المرحوم

رواية

دار الشروق

حسن كمال

المرحوم

دار الشروق

المرحوم

حسن كمال

تصميم الغلاف: أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١١٧٠٩/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3244-5

إهداء

إلى كل من فعل فمات.. فعاش إلى الأبد

الصدفة قَدَر!

أحدكم سيقرأ هذه العلامات ليحمل رسالة المرحوم إلى بقية العمر.

إذا أصبحت هذه الأوراق في أيديكم فأنتم ممن عُهد إليهم برسالته علَّ أحدكم يحملها بالروح أو بالجسد، أو بكليهما معًا!

أنا أول من وقعت في يده هذه الأوراق.. كلما انتهيت منها أعود لأقرأها من البداية كما لو كانت لعنة أخرى من سلسلة اللعنات التي أصابتني منذ أن عرفت المرحوم.

لم أجد لها حلا سوى أن أستكملها لينتهي دوري، ثم أتركها لغيري وأرحل مبتعدا لأنني لن أستطيع أن أبقى هنا بعد كل ما جاء فيها.

لن أغير شيئًا في فصوله التي أسماها هو علامات، وسأضيف إليها ما عشته معه حتى تكتمل الرؤية، مع كل يوم سيمر عليَّ بعدها سأحاول أن أفعل مثله؛ أن أنظر إلى الصورة من أعلى.. أتأمل نفسي جيدًا في كل يوم لأتأكد أنني لا زلت حيًّا، أستحق الراحة الأبدية في باطن الأرض.. وسأعمل على تحقيق كافة أمانيَّ في حياتي لكيلا تبقى لي أمنية بعد أخيرة تعيق نزولي إلى الأرض أو صعودي للسماء، فإن بقيَت لي واحدة فإنني أوصيكم بها وبجسدي خيرًا.

محمود سلمان

العلامة الأولى

الوحدة

على الحائط المختفي خلف الثلاجة الكبيرة مكتوب سطور ثلاثة بخط باهت:

> هنا ترقد الأجساد التي ضلَّت طريقها إلى باطن الأرض والأرواح التي ضلت طريقها إلى السماء، هؤلاء الذين حُرموا من صفة الرحمة. لا أحد يُطلق عليه المرحوم.. أنا المرحوم الوحيد في هذا المكان.

كعادتي ـ منذ أن أصبحتْ روحي حرة تتحرك كيفما تشاء ـ كنت أتجول بها في أرجاء المشرحة. أتأمل ما حولي في هدوء، دُرت دورة كاملة شملت جميع جوانب القاعة الرئيسية المتسعة. النوافذ الضيقة المرتفعة لا تُدخل نورًا من الخارج إلى المكان لكنها تدخل كَمًّا كبيرًا من هواء الشتاء. أربع وعشرون منضدة بالتمام.. نصفها عليه أجساد ملقاة في صمت تام.

كان جسدي أنا ـ المرحوم ـ ممددًا على المنضدة المعدنية الباردة في المنتصف تمامًا، وقد اختفى تحت الملاءة البيضاء المليئة بالبقع التي تنبعث منها رائحة الفورمالين النفاذة، في تلك اللحظة تحديدًا كنت أراجع قائمتي التي سأطلبها من الله وملائكته وأنا على باب الجنة.. فهذا هو أكثر ما يغريني بالدخول، ما تشتهي الأنفس.. يأتي ذلك عندي قبل فكرة الجنة سابقة التجهيز، لا مانع من القصور والجنان والأنهار لكنها غير مذكورة في قائمتي، فقائمة الطلبات تشتمل على شقة في واحد من الأدوار الوسطى في بناية مرتفعة ومزدحمة، حولها أرضية مرصوفة بالأسفلت، وصنابير تحمل المياه الحلوة وتنتشر في كل جزء من منزلي، لا أريد جناحين ولست متأكدًا من احتياجي لحور العين، الأكيد هو أنني أريد سيارة فارهة كبيرة تحمل لوحاتها المعدنية أي صفة غير (تحت الطلب) وحلة سوداء أنيقة ونظارة شمسية بنفس اللون مع امرأة بيضاء جميلة ترتدي ملابس سوداء وتُخفي عينيها خلف نظارة داكنة كبيرة، شعرها الأشقر أشعث متناثرٌ في كل اتجاه، وقد احمرَّ وجهها من شدة البكاء فزادها فتنة، تضع رأسها في حضني كل بضع دقائق وتمسح أنفها في سترتي دون أن تترك فيها أثرًا.

أخذت أتفحص الجثث الملقاة على المناضد، بعضها قطعوا يديه أو قدميه وبعضها فتحوا بطنه.. وبعضها فتحوا رأسه واستخرجوا منه مخه، كنت أحاول أن أعرف حكاياتهم من ملامحهم ولكن ذلك كان صعبًا؛ ملامح الأموات وسماتهم تتشابه.. الصمت والسكون والبرودة، أينما وكيفما تضعهم سيوضعون، لن تسمع اعتراضًا ولن ترى حركة واحدة، درت حولهم جميعًا وأنا أقرأ لهم الفاتحة، تفحصت وجوههم واحدًا تلو الآخر في شفقة، لم أجد فائدة في أن أحاول استنباط ما لا

أعرفه عنهم، توقفت طويلًا أمام جسدي.. ليس هذا أفضل ما يُرتدى من أجساد لكنه يؤدي الغرض، على الأقل أعرفه أكثر من الأجساد الأخرى.

تسللت داخلًا فيه بهدوء.. بدأت الحركة تدب فيه، رفعت الملاءة من فوق وجهي.. قمت متثاقلًا من مكاني، حيز رؤيتي أصبح أقل كثيرًا بعد ارتدائي لهذا الجسد وإن كانت الألوان أكثر وضوحًا وزهاء، تبدأ آلام فقراتي القطنية في الظهور كالمعتاد؛ لذلك أحتاج إلى بضع دقائق من التليين قبل أن تهدأ، تمطعت وأنا أتحرك في اتجاه الغرفة الجانبية التي نطلق عليها الاستراحة، أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسًا عميقًا، اتجهت نحو السرير.. في الواقع هو ليس سريرًا بالشكل المفهوم.. بل ثلاجة كبيرة مختفية تحت ملاءة زرقاء تعلوها بضع وسائد لتمنحها مظهر السرير، كانت هذه الثلاجة موجودة منذ عشرات الأعوام لكنَّ أحدًا لم يكن يهتم بها.. ربما لأنها الأقدم، دفعت لعامل الصيانة من مالي ثمانين جنيهًا ليجعلها تعمل مرة أخرى، كل الثلاجات هنا تفتح من أعلى وتلقى الجثث في داخلها، بعضها يحتوي على الفورمالين سائلًا ليحفظ الجثث بغير تبريد، الجثث توضع بعضها فوق بعض بغير فواصل، قد تجد رأسًا في ظهر ورأسًا في فرج ورأسًا تحت قدمين، جميلة هذه الرؤية.. الأحياء أيضًا كذلك؛ أما أنا فمنذ ولدت ورأسي متجه إلى الأسفل.. إلى تراب الأرض.

فتحت الثلاجة، أخرجت من داخلها جثتين كانتا على السطح.. سميحة أولًا، تحتها لوحٌ خشبيٌّ يفصلها ويمنع جسدها من ملامسة باقي الأجساد الموجودة في الداخل، يخرب عقلك يا سميحة.. لا زال جسدك رقيقًا وشهيًّا.. الله يرحمك، الثانية لرجل ضخم بعض

الشيء، نظرت في وجهه بتمعن ومسحت مكان الثقوب في منتصف رأسه ورقبته وأنا أغمغم:

- ألف سلامة على سعادتك.

أسندت الجثتين جالستين إلى الحائط وقمت لأعد الشاي وأنا أغني مع الصوت الخارج من جهاز التسجيل الذي أدرته في طريقي:

- ليلة حب حلوة.. من ألف ليلة وليلة..

ناديتهما بصوتٍ عالٍ:

- شايك يا سميحة؟ أنا عارف.. مضبوط.. حالًا، وأنت يا سعادة الباشا؟ شايك بالتأكيد سكر زيادة.

اقتربت من الجثتين اللتين مالتا قليلًا، عدلت من وضعيهما، وضعت أمامهما كوبي الشاي وأنا أبتسم قائلًا:

- تفضلا.

التفتُّ إلى جثة الرجل.. ملت عليه وهمست في أذنه:

- عارف يا أشرف باشا.. سميحة هي حبيبتي، أغلى عندي من كل سكان هذه المشرحة، أنت لو عرفتها كنت ستحبها مثلي تمامًا، لماذا؟ أولًا لأنها عمري، ثانيًا لأنها حلوة وطيبة وكلها سماحة بالفعل.. اسم على مسمى.

التفتُّ إليها في حب وأنا أناديها:

- يا سميحة يا سمحة يا سمحوحة يا قمر.. أنتِ حبيبة المرحوم.

سكتُّ قليلًا، أخذت رشفة من كوب الشاي، رفعت رأسي إلى

سقف المشرحة مبتسمًا، التفت إليه فجأة لأجيب عن التساؤل الذي بدا واضحًا على وجهه:

- لا طبعًا يا باشا اسمي الحقيقي ليس المرحوم.. اعتبره لقبًا، سميحة تعرف الحكاية جيدًا، سمعَتها مني عشرات المرات، اسمي عبد الحي وشهرتي المرحوم، وطلبة الكلية الأغبياء منذ فترة قريبة أضافوا لي اسمًا جديدًا؛ أصبحوا ينادونني عبده سمكة.. كل اسم له حكايته؛ أبي كان لحادًا.. من النوع الشريف، صدقني يا باشا عشرون عامًا قضيتها معه لم أره يومًا يفتح مقبرة بعد أن أُغلقت كما يفعل الآخرون، لم تغادر منطقته طيلة حياته جثة ولا جزء من جثة ولا حتى عظمة واحدة، من يريد جثة ميت؟ كثيرون.. سماسرة الجثث، الدجالون، تجار المخدرات. نَبَّاشو القبور بالمئات، حرفة تدر آلاف الجنيهات على رجال يكسبون الملاليم، أبي لم يكن ممن يفعلون ذلك، عندما أفكر فيه الآن أراه بطلًا، علمني أحسن تعليم، كان يشتري الكتب القديمة ويطلب مني أن أقرأ عليه.. الله يرحمه، طقوسه لم يعرفها أحد سواي، كان يقضي بضع ساعات في الليل إلى جوار كل جثة يدفنها، يتلو عليها القرآن ويدعو لها، كان يقول لي إنَّ ذلك لنجد يومًا منْ يدعو لنا عندما نصبح أمواتًا مثلهم.

ظلت هذه الطقوس ثابتة إلى أن علمه الشيخ صادق الكلب طقوسًا أخرى، أصبح صديقه فجأة.. صداقة الشؤم، تعرفين يا سميحة ما فعله الشيخ صادق بعد أن مات أبي! هذا الذي عاش طيلة عمره يصفه بأنه أخوه، ما علينا، المهم، الشيخ صادق كان يأتي كل ليلة ومعه الجوزة..

يقرآن الفاتحة سويًا أمام المقبرة ثم يبدأ في الرغي بالساعات كما لو كان يحادث صديقًا له، يصف للميت ما يحدث داخل القبر ليؤهله للإجابات الصحيحة مع أنه كان يضلله، أبي كان يكرر وراءه كالببغاء لا سيما عندما يبدأ الحشيش يلعب بعقليهما فيخرج صوتهما كما لو كانا ينشدان:

- اسمع.. أنت ترى الآن رجلين يأتيانك ليسألاك.. لا تخف، قل لهما ربي الله.. ديني الإسلام.. كتابي القرآن.. نبيي محمد عليه الصلاة والسلام، فإن سألاك عن عمرك فيم أفنيته فقل لهما أفنيته في خدمة الإسلام.. لا تفكر، كرر ورائي، وإن سألاك عن شبابك فيم أبليته فأجب أبليته في طاعة الله، لا تذكر البلاوي التي فعلتها.. اجعلها بينك وبين ربنا، ربنا يرحم.. أما هذان فيسجلان فقط، وإن سألاك عن علمك ما عملت به فقل لهما نفعت به الأمة.. الأمة يا أخ وليس أمك، اسمع الكلام، أما إن سألاك عن مالك.. كان يصمت قليلًا وينظر إلى المقبرة، فإن كانت من مقابر الفقراء ضحك بصوت عال وهو يقول: قل لهما أنا مدفون في مقابر الصدقة يا إخوانا أنتم ملائكة وتعرفون ما فيها، وإن كان من الأغنياء كان يصمت طويلًا وهو يفكر ثم يقول:

- قل لهما يا روح أمك ماذا فعلت بمالك، قل لهما إن أموالك ضاعت وإنك تركتها كلها خلفك ليتشاجر عليها الورثة، وإنك ملقى الآن في حفرة من تراب يرقص عليها اثنان من الصعاليك الحفاة الذين كنت تتأفف في حياتك إذا رأيتهما عن بعد.. قم ارقص يا حنفي فيقوم أبي ويرقصان كالمجاذيب فوق المقبرة وهما يرددان:

- ضاعت.. ضاعت.. ضاعت.

إلى أن يسقطا على الأرض وهما يضحكان في جنون، طالما وقفت أراقبهما وأنا أبكي، لا أدري هل كنت أبكي من أجل الرجل الذي دفن تحت الأرض أم من أجل الرجلين المدفونين فوق الأرض، إلا أنني أذكر جيدًا أول مرة رأيتهما فيها بعد أن ناما في مكانهما من كثرة الضحك والحشيش، اقتربت أنا من المقبرة وقبّلت ترابها وقرأت اسم صاحبها وهمست له:

- لا مؤاخذة يا كامل بيه.. صدقني هما لا يقصدان ما قالاه.. مساطيل وغلابة، إذا كان هناك أي شيء كنت تريد أن تفعله قبل أن تموت أنا تحت أمرك، تعال في الحلم أو ابعث لي عفريتك وأنا وحياة أبي النائم على قبرك سأنفذه لك، أنا اسمي الحقيقي عبد الحي.. واسم الشهرة المرحوم.. وأمي اسمها فوزية.

جاءني بعدها كامل بيه في المنام طالبًا مني أن أضع سعف نخل فوق قبره وأن أدفن فوقه علبة سجائر مارلبورو أحمر، آه والله يا باشا.. مارلبورو أحمر، الظاهر الله يرحمه كان صاحب مزاج، نفذت له ما يريد، احتجت إلى أن أدخر من النقود التي كنت آخذها من زوار المقابر أسبوعًا كاملًا لكني نفذت، وجاءني في الحلم بعدها وهو يدخن سجائره في رضا، فقمت سعيدًا لأحكي لأبي ما حدث فضربني مرتين.. أول مرة قال لي إنني أضعت النقود، وفي المرة الثانية أخبرني أنه سأل شيخ الجامع فأخبره أنها رؤيا وأن تدخين الميت في المنام معناه أنه يُشوى في النار، رأيته بعد ذلك هو وصادق يستخرجان العلبة ويخلطان تبغ السجائر بالحشيش وهما يدعوان للرجل بالرحمة الواسعة.

آه.. بمناسبة الرحمة.. لم أخبرك حتى الآن مَن الذي أسماني